المراجعات وتجديد الخطاب الديني

أ.د/ طه جابر العلواني

ماذا نعني بالمراجعات؟

مقدمة

شاءت الإرادة الإلهيَّة أن يحتل هذا الدين من مراتب الشرف أعلاها، ومن معاني الحق والخير والجمال أسماها، فهو دين ذو خطاب يتسامى على حدود الزمان والمكان، ويستعصي على التحريف أو الاندثار، ويمتلك فاعليَّة حضاريَّة وقدرة ذاتيَّة على التجدد والنهوض.

وقد شهد النصف الأخير من القرن الماضي يقظة إسلاميَّة شملت معظم بقاع الأرض بما فيها مناطق الأقليَّات المسلمة في العالم، التي استيقظت على هُويَّتها وعاد إليها وعيها بذاتها، وانتماؤها وهُويَّتها الحضاريَّة، فصارت تشيِّد المدارس والمساجد والمراكز الإسلاميَّة في كل مكان، وأطلق على تيارها بصفة عامَّة "تيار الصحوة الإسلاميَّة"، وإذا أخضعنا تلك الظاهرة إلى نوع من البحث والتدقيق العلمي والمعرفي سنجد أنَّ ما حدث كان جزءًا من صحوة دينيَّة شملت العالم كله، وانطلقت تبحث عن الدين، والخطاب الديني في كل مكان، فكأن الأبعاد الغائبة عن هذه الحضارة المعاصرة جعلت الإنسان المعاصر في عطش شديد لإرواء عطشه، وبل غلته، والخروج به من حالة الجفاف واليبس التي صار إليها نتيجة حضارة عوراء قرأت الطبيعة ولم تقرأ الوحي الهادي فيها، وكانت في حاجة ماسة إلى أن تعالج أمراضها بحضارة سوية تنظر إلى الأمور بعينين وتجمع بين قراءتين، فيكون لها عين على الوحي، وعين على الكون، يمشي في مناكب الأرض الممهدة وفجاجها وطباقها دون تحديد وجهة وقبلة من الوحي الهادي القائد المرشد لحركتها، والمسلمون حين بدأ الوعي الجديد يدب فيهم امتطوا إلى ذلك جوادين، جواد التراث الذي شكل لهم مصدر الفكر ومنبع النظر وجوادا آخر هو جواد المعاصرة التي شكلت التحدي وأيقظت فيهم قوى الوعي وشيئا من الرغبة بامتلاك الفاعليَّة والدافعيَّة؛ ولأنَّ الأحزاب والفئات وما عرف بالإسلام السياسي قد أقبلت على الوحي دون

خبرة كافية أو دراية بمناهج التعامل مع هذا التراث بحيث يسدد بذلك خطاها وتحدد كيف تتوخى أهدافها بدقة، وتقوم بعمليات تقدير للموقف سليمة دقيقة لتكون على بينة من أمرها، ومعرفة لكل أبعاد أزماتها، وأزمات العالم من حولها، وأية أفعال يقوم بها الإنسان بناء على ردود الأفعال فإنها قد لا تسمح له بأن يحسن التخطيط ويتقن التدبير ويستجيب للتحدي بما يوازيه أو يكافؤه، فكانت النتيجة أن واجهت تيارات الصحوة في عالمنا الإسلامي الحضارة العوراء السائدة بحضارة عوراء أخرى، أعلت من شأن الوحي بشكل أو بآخر وقللت إلى حد ما من شأن الحضارة المتحدية، فكانت حضارة عوراء إلى حد ما، أو عشواء، تواجه حضارة عوراء، لا بالاستيعاب والتجاوز والتصديق والهيمنة بل بأسلوب أو منهج: ما عندي خير مما عندك. ومن شأن هذا أن يربك عملية التثاقف أو المثاقفة بين الحضارتين، وحين انحصرت تلك الموجة على المستوى العالمي تركت آثارا لا يستهان بها في الغرب وفي الشرق، لكن الغرب سرعان ما استعاد بشكل أو بآخر توازنه، أما عالمنا الإسلامي فقد بدأ يعاني من تلك الآثار معاناة لم تستطع مؤسسات النخبة الهشة فيه أن تقوم بمثل ما قامت به زميلاتها الغربية، فظهرت تيارات إسلامية كان لها وجود تاريخي في بعض مراحل التاريخ لتعود من جديد حية جذعة بثياب جديدة وبدأت تنتشر أفكار الغلو الذي صحب الانحرافات الفكرية والتطرف والاستهانة بالآخر لدرجة إلغاء حقوقه وحريته في التعبير عن ذاته وجعل عدمه أفضل من وجوده، وتكفيره وتفسيقه وتبديعه وتهديد وجوده وماله وعرضه بشكل كبير، فاستدعى مخاوف العالم كله بما فيها المخاوف التي كنا ظننا أنها قد انتهت في مقابر التاريخ بهداية القرآن المجيد الذي علمنا كيف نتجاهل ذلك ونحيده، ونبعده عن طريقنا بآداب: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (**البقرة:134**)، فاصرت بعض الفئات تستحيي ما خلى، وتعيد إنتاجه، يدفعها إلى ذلك فكر سكوني لا يعرف الصيرورة والتغير ولا أثر الزمان في الإنسان والأفكار والكون والطبيعة، وهكذا برزت أزمة "الخطاب الديني" بشكلها المعاصر، فهذه الأزمة أزمة كان يمكن أن لا يكون لها وجود، لو تنبه الناس إلى بعض الأمور التي سبقت إشارتنا إليها، وعرفوا أن الزمن لا يعرف السكون بل هو سائر قدما لبلوغ الغاية التي رسمها الله (جل شأنه) له ليبلغ بالإنسان أجلا مسمى، وأجلا مسمى عنده.

إن موقف المسلمين الذي ذكرناه يشفع له ويزكيه أنه مهما قيل فيه من خصومه وأهله فإنه محاولة في استرداد دور الأمة المسلمة في الشهود الحضاري، وتخليص العالم من شقائه وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولكن لابد من التفكير ببعض الأخطاء والإصابات والانحرافات التي اعتورت المسيرة وشوهت شيئا من الصورة وألحقت غبشا في بعض الرؤى، فاختلطت بعض الأمور أمام الأمة، واختلت بعض مقاييسها وموازينها وغابت منطلقات أساسية في مشروع بعثها الحضاري، ونحن في مراجعاتنا لفكرنا وتراثنا الإسلامي وموروث معارفنا وأفكارنا نحاول أن نعمل على تسديد الخطى وتقويم مسيرة العمل وبيان أسباب الخلل وتحديد مواطن الإصابات، والدعوة إلى إحياء ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجزء منه النقد لبعض جوانب تراثنا والمراجعة والمناصحة والتصويب؛ لأن مستقبل الأمة المسلمة ليس مجرد مادة أو موضوع للبحث العلمي والدراسة الأكاديمية، وأمراض أمتنا لا يمكن أن تكون بالنسبة لنا مجرد ظواهر اجتماعية أو سياسية أو دينية فنحن جزء من هذه الأمة ينفعل بانفعالاتها ويتألم بآلامها، ويتداعى بالسهر والحمى بكل إصابة تلحق بها، فتحرك الأمة بشكل عام هو أملها وأملنا في مستقبل أفضل ورجاؤنا المنتظر وخيريتنا المرتقبة.

بيد أن عمليات المراجعة والنقد والتصويب والتقويم اليوم تبدو وكأنها أمر جديد على الساحة الإسلامية، بكل جوانبها وعلى الأزهر والجامعات الإسلامية بكل أصنافها، رغم عهدة التكليف والميراث الثقافي والأهمية القصوى في تراثنا لكل ما يحفظ المسيرة ويساعد على تسديدها، ولقد صرنا نرى الانزعاج عند ممارسة أي نقد لأي جانب من جوانب التراث أو تقويم له لاقتران ذلك بأفكار التجريح والتهجم ولأن تراثا واسعا قد قام بتكريس مكانة المتقدمين ومنحهم من الأوصاف ما لا يسمح بالمراجعة والنقد وقد ينظر بعضهم إلى النقد والمراجعة على أنه قاصر على أعداء الإسلام من مستشرقين وخصوم لا يريدون خيرا بهذه الأمة، ولا لها، خاصة إذا تعلق الأمر بنقد فقه أو قواعد أصولية أو رد لبعض أحاديث مما

يختلف الناس في توثيقه وتضعيفه، فذلك كله قد يجعل من يستمع إلى النقد والمراجعة مهما كان محايدا ينظر للناقد أو المراجع أنه قد انضم بذلك إلى أعداء سلف الأمة الصالحين، والشرائح القليلة التي حاولت ممارسة النقد والمراجعة ودعت إليها في أدبياتها المختلفة ونسبت نفسها إلى الموضوعية والاعتدال وترحمت على من أهدى إليها عيوبها نجدها حين يوجه إليها النقد من الداخل أو الخارج سرعان ما ترفضه، وتنفي عن نفسها الخطأ وتنزه الذات والقيادة، عن الوقوع في الخطأ، وقد تحاصر الناقد وتعزله وتسلكه في عداد المتآمرين، ليس ذلك فحسب بل صارت الدعوة داخل المؤسسات المتعاملة بهذا الخطاب الديني ترفض إعادة دراسة أقوال أو أمور قد تم بحثها من السلف وسب من يحاول فتح الباب لمراجعة في مثل هذه الأمور فسرعان ما يقال له من ؟ ومن أعطاك الحق في الخروج عن الإجماع أو قول الجمهور من الأئمة؟!

إن عملية النقد بحد ذاتها عملية دقيقة وشائكة، وليست بالهينة؛ ذلك لأن النقد العلمي البناء يقتضي فيما يقتضيه الإحاطة بالمشكلة المطروحة، وإدراك أبعادها كلها، والقدرة على استحضار أشباهها ونظائرها في التاريخ، وامتلاك المعايير الدقيقة من الكتاب الكريم، ثم من السُنة والسيرة والهدي النبوي، وهذه الأمور قد توقفت عندنا منذ زمن بعيد، نستطيع أن نعتبر بدايته عند منعطف الجنوح إلى التقليد؛ ولذلك قد أمسك العلماء منذ تلك العهود عن كثير من عمليات النقد، واستسلموا لنوع من التقليد، لا في الأصول وفي الفقه وحدهما بل في توثيق الرجال وتضعيفهم، وتصحيح الأخبار وتوثيقها أو تضعيفها، والتقليد في سائر أنواع الدراية والرواية، وهو أمر أو تقليد ما كان ينبغي أن نسقط فيه، بحيث تنشأ أجيال تشعر بالعجز عن النقد، والموازنة؛ لأن الناقد هنا في موقع يوازي فيه المجتهد والمفكر والجماعة من حيث ضرورة الإحاطة بظروف الموقف أو الفعل ووضعه في إطاره الصحيح، ثم استنفار جميع الطاقات للنظر في إمكان تطوير ذلك الجهد والارتقاء به، وفتح المجالات والآفاق الأوسع

أمامه، وتوجيهه إلى أن يؤدي دورا أكبر مما رسموا له، وتوظيفه في مشروع أكثر شمولا، مما يجعل النقد والمراجعة في نظرنا بناء حقيقيا، ومشاركة في البناء، وإضافة ملموسة تحيط بأبعاد الموقف أو الفكرة لتوجهها التوجيه البنَّاء، الذي يجعلها لبنة في بناء صالح متماسك يبنى عليه، فيكون النقد والمراجعة آنذاك مرحلة من مراحل التجديد، ولبنة هامة من لبنات البناء، ينسجم مع الخبر المروي إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، والقائم بالمراجعة والنقد مندرج في قائمة المجددين. ومن هنا يكتسب مفهوم التجديد معناه الدقيق فهو لا يعني التغيير، ولا يعني مجرد طبعة جديدة ومنقحة لقواعد الدين ومبادئه، لتساير حاجات الناس وتواكب تطور أحوالها، بل هو تجديد في فهم الناس له ولدوره ولكل قاعدة من قواعده، وتجديد للإيمان به واليقين بمصادره، ودقة نظريته المعرفية، ثم تنزيل ما جاء فيه في مجتمع متغير متحرك، ليعالج مشكلاته ويهدي حركته، ويكون نورا له وينفي الخبث عنه ويستخلصه من استغلال نابتة السوء، ويقوم الإعوجاج، مهما كان خط الميل دقيقا وخفيا، ويصوب الخطأ في القول والفعل والممارسة، ويبرز المعالم الغائبة مقودا بالرجوع إلى الحق في صفائه ونقائه فتتحرك جوامد العقول، وتطلق من عقالها، وتوقظ من غفلتها، وتزكي وتثار فاعليتها، فهو جهاد فكري في مجالات كثيرة تغطي حركة الإسلام والإنسان، وتوجه إلى الأبعاد الغائبة لتستحضرها، وإلى نواميس الكون وسننه، وشروط قيام الحضارات، وعوامل انهيارها، وتجديد العلاقة الجدلية المتعاونة بين العقل والوحي، دون إخلال بتلك المعادلة الدقيقة الحكيمة، وهذا النقد والمراجعة من شأنه أن يمكننا من جعل علومنا ومعارفنا مما ازدوج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأي والشرع، فأخذ من كل منهما سواء السبيل، فلا يكون –أي علومنا– تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد، وبذلك نستطيع أن نعيد بناء شخصيتنا وصياغة خطابنا الديني من جديد في ذلك التوازن السديد.

إذن فعملية النقد والمراجعة عملية اجتهادية دائمة، لا ينبغي أن توقف ما بقيت على الأرض الحياة، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهي فريضة لازمة، وهي حالة أمة لا تسطيع الاستغناء عنها، ولا تتجاوزها ولا تتجاهلها والله (جل شأنه) كما أمر في الاجتهاد وأعذر في الخطأ فيه ليكون هذا الاجتهاد بما يشتمل عليه من مراجعة ونقد وتحليل وتفكيك وتركيب عملا دائما مستمرا، تقوم الأمة به، وتمارسه في سائر أحوالها، فالأفكار سواء أكانت في مجال تفسير النصوص أو الاستنباط منها أو استخراج ما فيها من فقه، وحكمة، في حاجة دائمة إلى النقد والمراجعة؛ لأن الفكر يولد وتولد معه عوارضه، التي تستدعي المراجعة فلابد من الإنتاج الفكري المتجدد والاجتهاد المستمر في كل عصر ومكان؛ لأن لكل عصر حاجاته ومتطلباته ومشكلاته المستجدة، ووسائله المتنامية في ضوء معطيات وظروف مختلفة.

إننا نعلم بعد بحوث ودراسات متعمقة لنخبة الأمة وكثير من المعنيين بدراستها من داخلها ومن خارجها أن أهم أزماتها أزمة فكرية، تتصل بها سائر أزماتها، فهي إما مضاعفات أو إنعكاسات أو أعراض جانبيه لها، أو نتيجة من نتائجها، فالأزمة الحقيقية في شرائح المجتمع هي أزمة صفوة ونخبة، في منظومتها الفكرية ومناهجها العملية، وليست أزمة أمة، فالأمة ما تزال تؤكد انتماءها إلى الإسلام، أما من يمكن أن يطلق عليها نخبة إذا صح التعبير في الشريحة التي تحتاج إلى إعادة تشكيل وبناء المنظومة الفكرية، ورفدها بالإنتاج الفكري الذي يجعلها قادرة على توليد أفكار تستوعب حركة الأمة وتؤزها أزا، لتوقظها من مرقدها الحضاري ومرضها الثقافي، وموتها الفكري، فالنخبة أو أهل الحل والعقد في عقل الأمة الموجه لحركتها.

إن الأمة اليوم ما تزال في دور الانفعال، والاستجابة لما يخططه لها خصومها؛ ولذلك فهي تعاني من تبعثر وتمزق بين الأفكار والشعارات التي لا تزيدها إلا خبالا، وتخلط أوراقها وتصيب رؤاها وموازينها بالاضطراب والخلل، لكننا نرى أن الليل لابد أن يعقبه فجر، وأن فجر الأمة قادم ومنتظر بإذن الله، إذا خطا أبناؤها الخطوات السليمة في ذلك الاتجاه، ولعلنا

في هذه المقدمة قد ألممنا إلمامة شاملة وبينا ضرورة التأسيس لعلم النقد والمراجعات للتراث والمعاصرة، وهو علم يختصره القرآن الكريم بقوله:﴿ .. **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ (**الأنعام:148**) وقوله (تعالى) ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ..**﴾(**النجم:23**)، ﴿.. **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (**النمل:64**) ، فهذه الوسائل هي التي تربي العقل وتنمي الوجدان وتصحح الخطاب، وتؤسس لإعادة البناء وهو أمر تنوء به العصبة من المؤسسات بل من الدول، ولابد من تضافر جهود الأمة كلها، وضمها إلى بعضها وحسن تنظيمها؛ لتحقيق هذا الهدف السامي، هدف تجديد الخطاب الديني، الذي هو هدفنا جميعا، وغايتنا المشتركة.

﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (**هود:88**)

الفصل الأول

ما هي المراجعة؟

تحرير المفهوم قرآنيا:

المراجعة هي المرادة، قال (تعالى): ﴿.. **يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ..**﴾ (سبأ:**31**).

مادة رجع في القرآن الكريم:

رجع: الرجوع أي العودة إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء، مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه أو بفعل من أفعاله. فالرجوع العود، والرجع الإعادة، والرجعة في الطلاق، وفي العود إلى الدنيا بعد الممات، ويقال فلان يؤمن بالرجعة. والرجاع مختص برجوع الطير بعد قطاعها. فمن الرجوع قوله (تعالى): ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ..**﴾ (المنافقون:**8**)، ﴿**فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (يوسف:**63**)، ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ .. **﴾ (الأعراف:**150**)، ﴿.. **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ..** ﴾ (النور:**28**). ويقال رجعت عن كذا رجعًا ورجعت الجواب نحو قوله: ﴿**فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ..** ﴾ (التوبة:**83**)، وقوله: ﴿**إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (هود:**4**)، وقوله: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ (العلق:**8**)، وقوله تعالى: ﴿.. **ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (الأنعام:**60**)، يصح أن يكون من الرجوع كقوله: ﴿**اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (الروم:**11**)، ويصح أن يكون من الرجع كقوله: ﴿.. **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (الزمر:**44**)، وقد قرئ: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ (البقرة:**281**)، بفتح التاء وضمها، وقوله: ﴿.. **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (آل عمران:**72**)، أي يرجعون عن الذنب، وقوله: ﴿**وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ**

أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء:95) أي حرمنا عليهم أن يتوبوا ويرجعوا عن الذنب تنبيها أنه لا توبة بعد الموت كما قال: ﴿.. **قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:13)**، وقوله: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل:35)**

فمن الرجوع أو من رجع الجواب كقوله: ﴿.. **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ:31)**، وقوله: ﴿.. **ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل:28)**

فمن رجع الجواب لا غير، وكذا قوله: ﴿.. **فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل:35)**، وقوله: ﴿**وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق:11)** أي المطر، وسمي رجعًا لرد الهواء ما تناوله من الماء، وسمي الغدير رجعًا إمَّا لتسميته بالمطر الذي فيه وإمَّا لتراجع أمواجه وتردده في مكانه. ويقال ليس لكلامه مرجوع أي جواب. ودابة لها مرجوع يمكن بيعها بعد الاستعمال، وناقة راجع ترد ماء الفحل فلا تقبله، وأرجع يده إلى سيفه ليستله والارتجاع الاسترداد، وارتجع إبلًا إذا باع الذكور واشترى إناثًا فاعتبر فيه معنى الرجع تقديرًا وإن لم يحصل فيه ذلك عينًا، واسترجع فلان إذا قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، والترجيع ترديد الصوت باللحن في القراءة وفي الغناء وتكرير قول مرتين فصاعدًا، ومنه الترجيع في الأذان. والرجيع كناية عن أذى البطن للإنسان والدابة وهو من الرجوع، ويكون بمعنى الفاعل أو من الرجع ويكون بمعنى المفعول، وجبة رجيع أعيدت بعد نقضها ومن الدابة ما رجعته من سفر إلى سفر، والأنثى رجيعة. وقد يقال دابة رجيع. ورجع سفر كناية عن النضو، والرجيع من الكلام المردود إلى صاحبه، أو المكرر[1].

نماذج للمراجعة من القرآن الكريم:

قصة المجادلة نموذج من نماذج المراجعة:

[1] المفردات، للراغب الأصفهاني.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (**المجادلة1–4**).

أخرج الإمام أحمد عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: الحمد لله وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تكلِّمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله (عز وجل): ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** (**المجادلة:1**)، وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً، كذا في التفسير لابن كثير ، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص36)، وفي رواية لابن أبي حاتم كما في التفسير لابن كثير عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ـ رضي الله عنها ـ ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وهي تقول: يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني؛ حتى إذا كبرتْ سني وانقطع ولدي ظاهر مني. اللهمَّ إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا** .. ﴾ قالت: وزوجها أوس ابن الصامت ـ رضي الله عنه[2].

الله والملائكة في قصة الاستخلاف:

[2] حياة الصحابة للكاندهلوي، 138/4.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 30–37).

المراجعة كما صورها القرآن المجيد في بعض سياقاته أن يرجع الناس القول بعضهم إلى بعض، فكأن هناك مناظرة بين سائل ومجيب، أو مستدل ومعترض أو العكس، فذلك كله يندرج في مفهوم المراجعة في ذلك النوع من السياقات، وذلك يعني أن الكلمة الوحيدة التي لا تبدل ولا يراجع قولها بها لكي تغير هي كلمة الله | (جل شأنه)، إذ لا مبدل لكلماته، وكل ما عدى كلمات الله فهو موضع للمراجعة، بل الله (جل شأنه) تفضلا منه وتكرما جعل للبشر الحق في أن يسألوه (سبحانه) عن كلماته، وأفعاله (تبارك وتعالى) وأعماله، لا على أساس أنهم يملكون بذلك حق التبديل والتغيير؛ بل لأن الله (تبارك وتعالى) رأفة منه ورحمة وخبرة منه بعبادة ومنًا وتفضلا وإحسانا عليهم أعطاهم الحق في أن يناجوه، ويشتكوا إليه، ويرفعوا دعاواهم إليه في كل حين، فلو سألهم عن شيء دون أن يرسل إليهم رسولا يبين لهم فمن حقهم أن يقولوا ﴿ .. **رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**﴾ (**طه:134**)؛ ولذلك جعل من سنته أن لا يعذب حتى يبعث رسولا، ﴿ ..**وَمَا**

كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:**15**)، ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ..﴾** (**القصص:59**).

ولقد ظن الملائكة أن قول الله (جل شأنه) لهم ﴿ .. **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ..﴾** (**البقرة:30**) يتضمن إذنا لهم بمناقشته ومناقشة أصل الخلق والاستخلاف معهم، ولما أوضح الله (جل شأنه) لهم خطأهم بذلك، وأنه أعلم بمن يصطفي وبمن يختار وأنه كما اصطفاهم واختارهم لمهام فإنه اصطفى غيرهم واختارهم لمهام أخرى، أمسكوا واستسلموا وأعلنوا وقوفهم عند الحدود التي حدها الله لهم، وقالوا: ﴿.. **لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** (**البقرة:32**) وانتهى الأمر عند ذلك، ثم جاءت مرحلة السجود، فلم يتخلف إلا إبليس، وما تخلف إلا بعلم الله (جل شأنه) ولا دليل في ذلك على قدرات خارقة له، أو أمور مكنته من معصية الله (جل شأنه) وتجاوز أمره (تبارك وتعالى).

موسى وفرعون وهارون نموذج آخر للمراجعة:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ

إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء:68).

إنه نموذج لا ينقضي دروسه وعبره، نموذج للإنسان المستلب، الذي يستلبه إنسان مثله فيستعبده، ويستبد به، ويجعله وكأنه حيوان أعجم، لا يحق له أن يمارس شيئا يذكره بإنسانيته، وينبهه إلى عبوديته لله، فذلك كله في شرائع المستبدين بأمثالهم من البشر ممنوع، لا يقبل بل يرفض.

وقال الذي آمن نموذج للمراجعة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (غافر: **26–30**).

نستخلص من هذا كله أن المراجعة مبدأ قرآني أصيل أصَّل له القرآن الكريم.

ثم ننتقل إلى مراجعات القرآن للنبي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم**1–5**).

أسرى بدر:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:67–68).

عبدالله بن مكتوم:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ﴾ (عبس: 1–12).

وهذا النموذج يدل على أن إنشاء الأحكام والكشف عنها أمر اختص الله (جل شأنه) به، ولم يفوض فيه أحدا من خلقه، فهو (جل شأنه) من يحدد ما هو إيمان وما هو كفر، وما هو ضلال وما هو هدى، وما هو حرام وما هو حلال، وليس لأحد آخر من خلقه أن يفعل شيئا من ذلك، فالحاكمية إلهية، والرسول –صلوات الله وسلامه– عليه يبين للناس أحكام ربه، ولكنه لا ينشئها استقلالا، ولا يكشف عنها ابتداعا، بل هو متبع في ذلك كله لآيات ربه، يتلوها حق التلاوة، ويعلمها للناس ويبين حكمتها وأسرارها ودلائلها لهم، وينفذها ويعمل بها ليتأسوا به، وليقتدوا بفعاله –صلوات الله وسلامه عليه–، فإذا لم يقع منه ذلك على الوجه الذي أمره الله (جل شأنه) به لأي سبب من الأسباب فإن القرآن المجيد يسارع إلى تنبيهه وتذكيره وبيان الوجه السليم لكيفية تطبيقه، والله أعلم.

وعلى ذلك تحمل جميع الاستدراكات المماثلة التي وقعت في القرآن الكريم، على أفعال أو أقوال أو تصرفات رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، فالله أعلم بما يصلح عباده، وما يصلح لهم (تبارك وتعالى).

أمثلة على مراجعات الصحابة:

خرَج النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم- زمَنَ الحُديبيَةِ في بضعَ عشر مئةً مِن أصحابِه حتَّى إذا كانوا بذي الحُليفةِ قلَّد رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم- وأشعَر ثمَّ أحرَم بالعمرةِ وبعَث بيْنَ يدَيْهِ عينًا له رجُلًا مِن خُزاعةَ يجيئُه بخبرِ قريشٍ وسار رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم- حتَّى إذا كان بغَديرِ الأشطاطِ قريبًا مِن عُسْفانَ أتاه عينُه الخُزاعيُّ فقال: إنِّي تركْتُ كعبَ بنَ لُؤيٍّ وعامرَ بنَ لؤيٍّ قد جمَعوا لك الأحابيشَ وجمَعوا لك جموعًا كثيرةً وهم مقاتِلوك وصادُّوك عن البيتِ الحرامِ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أشيروا علَيَّ أترَوْنَ أنْ نميلَ إلى ذراريِّ هؤلاء الَّذين أعانوهم فنُصيبَهم فإنْ قعَدوا قعَدوا مَوتورين محزونين وإنْ نجَوْا يكونوا عُنقًا قطَعها اللهُ أم ترَوْنَ أنْ نؤُمَّ البيتَ فمَن صدَّنا عنه قاتَلْناه) ؟ فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليه: اللهُ ورسولُه أعلمُ يا نبيَّ اللهِ إنَّما جِئْنا مُعتمرينَ ولم نجِئْ لقتالِ أَحدٍ ولكنْ مَن حال بينَنا وبيْنَ البيتِ قاتَلْناه فقال النَّبيُّ. صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فرُوحوا إذًا) قال الزُّهريُّ في حديثِه: وكان أبو هُريرةَ يقولُ: ما رأَيْتُ أحدًا أكثرَ مشاورةً لأصحابِه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال الزُّهريُّ في حديثِه عن عُروةَ عن المِسوَرِ ومَروانَ في حديثِهما: فراحوا حتَّى إذا كانوا ببعضِ الطَّريقِ قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم-: (إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ بالغَميمِ في خيلٍ لقريشٍ طليعةً فخُذوا ذاتَ اليمينِ) فواللهِ ما شعَر بهم خالدُ بنُ الوليدِ حتَّى إذا هو بقَترةِ الجيشِ فأقبَل يركُضُ نذيرًا لقريشٍ وسار النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى إذا كان بالثَّنيَّةِ الَّتي يُهبَطُ عليهم منها فلمَّا انتهى إليها بركَتْ راحلتُه فقال النَّاسُ: حَلْ حَلْ فألحَّتْ فقالوا: خلَأَتِ القصواءُ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (ما خلَأَتِ القصواءُ وما ذلك لها بخُلُقٍ ولكنْ حبَسها حابسُ الفيلِ) ثمَّ قال: (والَّذي نفسي بيدِه لا يسأَلوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها) ثمَّ زجَرها فوثَبتْ به قال: فعدَل عنهم حتَّى نزَل بأقصى الحُديبيَةِ على ثَمَدٍ قليلِ الماءِ إنَّما يتبرَّضُه النَّاسُ تبرُّضًا فلم يلبَثْ بالنَّاسِ أنْ نزَحوه

فشُكي إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العطشُ فانتزَع سهمًا مِن كِنانتِه ثمَّ أمَرهم أنْ يجعَلوه فيه قال: فما زال يَجيشُ لهم بالرِّيِّ حتَّى صدَروا عنه: فبينما هم كذلك إذ جاءه بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيُّ في نفرٍ مِن قومِه مِن خُزاعةَ وكانت عَيْبَةَ نُصحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ تِهامةَ فقال: إنِّي تَرَكْتُ كعبَ بنَ لؤيٍّ وعامرَ بنَ لؤيٍّ نزَلوا أعدادَ مياهِ الحُديبيَةِ معهم العُوذُ المطافيلُ وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيتِ الحرامِ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّا لم نجِئْ لقتالِ أَحدٍ ولكنَّا جِئْنا مُعتمرينَ فإنَّ قريشًا قد نَهَكَتْهم الحربُ وأضرَّت بهم فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مدَّةً ويُخلُّوا بيني وبيْنَ النَّاسِ فإنْ ظهَرْنا وشاؤوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فعَلوا وقد جَمُّوا وإنْ هم أبَوْا فوالَّذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتي أو لَيُبْدِيَنَّ اللهُ أمرَه) قال بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ: سأُبلِغُهم ما تقولُ: فانطلَق حتَّى أتى قريشًا فقال: إنَّا قد جِئْناكم مِن عندِ هذا الرَّجُلِ وسمِعْناه يقولُ قولًا فإنْ شِئْتم أنْ نعرِضَه عليكم فعَلْنا فقال سفهاؤُهم: لا حاجةَ لنا في أنْ تُخبِرونا عنه بشيءٍ وقال ذو الرَّأيِ: هاتِ ما سمِعْتَه يقولُ قال: سمِعْتُه يقولُ كذا وكذا فأخبَرْتُهم بما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقام عندَ ذلك أبو مسعودٍ عُروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ فقال: يا قومِ ألَسْتُم بالولدِ؟ قالوا: بلى قال: ألَسْتُ بالوالدِ؟ قالوا: بلى قال: فهل تتَّهموني ؟ قالوا: لا قال: ألَسْتُم تعلَمون أنِّي استنفَرْتُ أهلَ عُكاظٍ فلمَّا بلَّحوا عليَّ جِئْتُكم بأهلي وولَدي ومَن أطاعني ؟ قالوا: بلى قال: فإنَّ هذا امرؤٌ عرَض عليكم خُطَّةَ رُشدٍ فاقبَلوها ودعوني آتِهِ قالوا: ائتِه فأتاه قال: فجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نحوًا مِن قولِه لبُدَيْلِ بنِ وَرْقاءَ فقال عروةُ بنُ مسعودٍ عندَ ذلك يا محمَّدُ أرأَيْتَ إنِ استأصَلْتَ قومَك هل سمِعْتَ أحدًا مِن العربِ اجتاح أصلَه قبْلَك وإنْ تكُنِ الأخرى فواللهِ إنِّي أرى وجوهًا وأرى أشوابًا مِن النَّاسِ خُلَقاءَ أنْ يفِرُّوا ويدَعوك فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليه: امصُصْ ببَظْرِ اللَّاتِ أنحنُ نفِرُّ وندَعُه؟ فقال أبو مسعودٍ: مَن هذا ؟ قالوا: أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ فقال: أمَا والَّذي نفسي بيدِه لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجَبْتُك وجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكلَّما

كلَّمه أخَذ بلِحيتِه والمغيرةُ بنُ شُعبةَ الثَّقفيُّ قائمٌ على رأسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعليه السَّيفُ والمِغفَرُ فكلَّما أهوى عُروةُ بيدِه إلى لحيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ضرَب يدَه بنَعْلِ السَّيفِ، وقال: أخِّرْ يدَك عن لحيةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فرفَع عروةُ رأسَه وقال: مَن هذا ؟ فقالوا: المغيرةُ بنُ شُعبةَ الثَّقفيُّ فقال: أيْ غُدَرُ، أولَسْتُ أسعى في غَدرَتِك وكان المغيرةُ بنُ شُعبةَ صحِب قومًا في الجاهليَّةِ فقتَلهم وأخَذ أموالَهم ثمَّ جاء فأسلَم فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أمَّا الإسلامُ فأقبَلُ وأمَّا المالُ فلَسْتُ منه في شيءٍ) قال: ثمَّ إنَّ عروةَ جعَل يرمُقُ صحابةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعينِه فواللهِ ما يتنخَّمُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نُخامةً إلَّا وقَعتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَك بها وجهَه وجِلدَه وإذا أمَرهم انقادوا لأمرِه وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وَضوئِه وإذا تكلَّم خفَضوا أصواتَهم عندَه وما يُحِدُّون إليه النَّظرَ تعظيمًا له فرجَع عروةُ بنُ مسعودٍ إلى أصحابِه فقال: أيْ قومِ واللهِ لقد وفَدْتُ إلى الملوكِ ووفَدْتُ إلى كسرى وقيصرَ والنَّجاشيِّ واللهِ ما رأَيْتُ ملِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ محمَّدًا وواللهِ إنْ يتنخَّمُ نُخامةً إلَّا وقَعت في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَك بها وجهَه وجِلْدَه وإذا أمَرهم ابتدَروا أمرَه وإذا توضَّأ اقتتلوا على وَضوئِه وإذا تكلَّم خفَضوا أصواتَهم عندَه وما يُحِدُّون إليه النَّظرَ تعظيمًا له وإنَّه قد عرَض عليكم خُطَّةَ رُشدٍ فاقبَلوها فقال رجُلٌ مِن بني كِنانةَ دعوني آتِه فلمَّا أشرَف على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا فلانٌ مِن قومٍ يُعظِّمون البُدنَ فابعَثوها له قال: فبُعِثَتْ واستقبَله القومُ يُلَبُّون فلمَّا رأى ذلك قال: سُبحانَ اللهِ لا ينبغي لهؤلاء أنْ يُصَدُّوا عن البيتِ فلمَّا رجَع إلى أصحابِه قال: رأَيْتُ البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشعِرَتْ فما أرى أنْ يُصَدُّوا عن البيتِ فقام رجُلٌ منهم يُقالُ له: مِكرَزٌ فقال: دعوني آتِه فقالوا: ائتِه فلمَّا أشرَف عليهم قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (هذا مِكرَزٌ وهو رجُلٌ فاجرٌ) فجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فبينما هو يُكلِّمُه إذ جاءه سُهيلُ بنُ عمرٍو قال مَعْمَرٌ: فأخبَرَني أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ عن عِكرمةَ قال: فلمَّا جاء سُهيلٌ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (هذا سُهيلٌ قد سهَّل اللهُ لكم أمرَكم) قال مَعْمَرٌ في حديثِه عن

الزُّهريِّ عن عُروةَ عن المِسوَرِ ومَروانَ: فلمَّا جاء سُهيلٌ قال: هاتِ اكتُبْ بينَنا وبينَكم كتابًا فدعا الكاتبَ فقال: اكتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقال سُهيلٌ: أمَّا الرَّحمنُ فلا أدري واللهِ ما هو ولكِنِ اكتُبْ باسمِك اللَّهمَّ ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (اكتُبْ هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ) فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: لو كنَّا نعلَمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صدَدْناك عن البيتِ ولا قاتَلْناك ولكِنِ اكتُبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (واللهِ إنِّي لَرسولُ اللهِ وإنْ كذَّبْتُموني اكتُبْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ) قال الزُّهريُّ: وذلك لقولِه: لا يسأَلوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها وقال في حديثِه عن عُروةَ عنِ المِسوَرِ ومَروانَ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (على أنْ تُخَلُّوا بينَنا وبيْنَ البيتِ فنطوفَ به فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: إنَّه لا يتحدَّثُ العربُ أنَّا أُخِذْنا ضُغطةً، ولكِنْ لك مِن العامِ المقبِلِ، فكتَب، فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: على أنَّه لا يأتيك منَّا رجُلٌ وإنْ كان على دِينِك أو يُريدُ دينَك إلَّا ردَدْتَه إلينا فقال المسلِمونَ: سُبحانَ اللهِ كيف يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاء مسلِمًا فبينما هم على ذلك إذ جاء أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو يرسُفُ في قيودِه قد خرَج مِن أسفلِ مكَّةَ حتى رمى بنفسِه بيْنَ المسلمينَ فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: يا محمَّدُ هذا أوَّلُ مَن نُقاضيك عليه أنْ ترُدَّه إليَّ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّا لم نُمضِ الكتابَ بعدُ فقال: واللهِ لا أُصالِحُك على شيءٍ أبدًا فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فأَجِزْه لي) فقال: ما أنا بمُجيزِه لك قال: فافعَلْ قال: ما أنا بفاعلٍ قال مِكرَزٌ: بل قد أجَزْناه لك فقال أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو: يا معشرَ المسلمينَ أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مسلِمًا ألا ترَوْنَ إلى ما قد لقيتُ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في اللهِ – فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضوانُ اللهِ عليه: واللهِ ما شكَكْتُ منذُ أسلَمْتُ إلَّا يومَئذٍ فأَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلْتُ: ألَسْتَ رسولَ اللهِ حقًّا ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: ألَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِيننِا إذًا ؟ قال: (إنِّي رسولُ اللهِ ولَسْتُ أعصي ربِّي وهو ناصري) قُلْتُ: أوليسَ كُنْتَ تُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوفُ به ؟ قال (بلى فخبَّرْتُك أنَّك تأتيه العامَ

؟) قال: لا قال: (فإنَّك تأتيه فتطوفُ به قال: فأتَيْتُ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضوانُ اللهِ عليه فقُلْتُ: يا أبا بكرٍ أليس هذا نبيَّ اللهِ حقًّا ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: أولَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا ؟ قال: أيُّها الرَّجلُ إنَّه رسولُ اللهِ وليس يعصي ربَّه وهو ناصرُه فاستمسِكْ بغَرْزِه حتَّى تموتَ فواللهِ إنَّه على الحقِّ قُلْتُ: أوليس كان يُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به ؟ قال: بلى قال فأخبَرك أنَّا نأتيه العامَ ؟ قُلْتُ: لا قال: فإنَّك آتيه وتطوفُ به قال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضوانُ اللهِ عليه فعمِلْتُ في ذلك أعمالًا – يعني في نقضِ الصَّحيفةِ – فلمَّا فرَغ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكتابِ أمَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أصحابَه فقال: (انحَروا الهَدْيَ واحلِقوا) قال: فواللهِ ما قام رجُلٌ منهم رجاءَ أنْ يُحدِثَ اللهُ أمرًا فلمَّا لم يقُمْ أحَدٌ منهم قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدخَل على أمِّ سلَمةَ فقال: ما لقيتُ مِن النَّاسِ قالت أمُّ سلَمةَ: أوَتُحِبُّ ذاك، اخرُجْ ولا تُكلِّمَنَّ أحدًا منهم كلمةً حتَّى تنحَرَ بُدنَكَ وتدعوَ حالقَك فقام النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم– فخرَج ولم يُكلِّمْ أحدًا منهم حتَّى نحَر بُدْنَه ثمَّ دعا حالقَه فحلَقه فلمَّا رأى ذلك النَّاسُ جعَل بعضُهم يحلِقُ بعضًا حتَّى كاد بعضُهم يقتُلُ بعضًا قال: ثمَّ جاء نِسوةٌ مؤمناتٌ فأنزَل اللهُ (تعالى): ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (**الممتحنة:10**)، فطلَّق عمرُ رضوانُ اللهِ عليه امرأتينِ كانتا له في الشِّركِ فتزوَّج إحداهما معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ والأخرى صفوانُ بنُ أميَّةَ قال: ثمَّ رجَع –صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم– إلى المدينةِ فجاءه أبو بَصيرٍ رجُلٌ مِن قريشٍ وهو مسلِمٌ فأرسَلوا في طلبِه رجُلينِ وقالوا: العهدَ الَّذي جعَلْتَ لنا فدفَعه إلى الرَّجُلينِ فخرَجا حتَّى بلَغا به ذا الحليفةِ فنزَلوا يأكُلون مِن تمرٍ لهم فقال أبو بَصيرٍ لأَحدِ الرَّجُلينِ: واللهِ لَأرى

سيفَك هذا يا فلانُ جيِّدًا فقال: أجَلْ واللهِ إنَّه لَجَيِّدٌ لقد جرَّبْتُ به ثمَّ جرَّبْتُ فقال أبو بَصيرٍ: أَرِني أنظُرْ إليه فأمكَنه منه فضرَبه حتَّى برَد وفرَّ الآخَرُ حتَّى أتى المدينةَ فدخَل المسجدَ يعدو فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لقد رأى هذا ذُعْرًا فلمَّا انتهى إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم- قال: قُتِل واللهِ صاحبي وإنِّي لَمقتولٌ فجاء أبو بَصيرٍ فقال: يا نبيَّ اللهِ قد واللهِ أوفى اللهُ ذمَّتَك قد ردَدْتَني إليهم ثمَّ أنجاني اللهُ منهم فقال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم-: ويلُ امِّه لو كان معه أحَدٌ فلمَّا سمِع بذلك عرَف أنَّه سيرُدُّه إليهم مرَّةً أخرى فخرَج حتَّى أتى سِيفَ البحرِ قال: وتفلَّت منهم أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو فلحِق بأبي بَصيرٍ فجعَل لا يخرُجُ مِن قريشٍ رجُلٌ أسلَم إلَّا لحِق بأبي بَصيرٍ حتَّى اجتمَعت منهم عصابةٌ قال: فواللهِ ما يسمَعون بِعِيرٍ خرَجتْ لقريشٍ إلى الشَّامِ إلَّا اعترَضوا لها فقتَلوهم وأخَذوا أموالَهم فأرسَلتْ قريشٌ إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم- تُناشِدُه اللهَ والرَّحِمَ لَمَا أرسَل إليهم ممَّن أتاه فهو آمِنٌ فأرسَل النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه و آله وسلَّم- إليهم فأنزَل اللهُ (جلَّ وعلا): ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ (**الفتح: 26**) وكانت حميَّتُهم أنَّهم لم يُقِرُّوا أنَّه نبيُّ اللهِ ولم يُقِرُّوا ببِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. [3]

[3] الراوي : المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم | المحدث : ابن حبان | المصدر : صحيح ابن حبان

الصفحة أو الرقم: 4872 | خلاصة حكم المحدث : أخرجه في صحيحه.

أصول الفقه بدأ بمجموعة من الكلمات القرآنيّة نحو ﴿.. **خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** .. ﴾ (**البقرة:29**)، ﴿ .. **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ** .. ﴾ (**الأعراف:157**)، ثم طوره بعد ذلك الفقهاء بسكوت أولا من الحكام وبتأييد في المرحلة التالية منهم، فطور من كليّات القرآن ومقاصده إلى مَا يمكن تسميته (بأصول التشريع) التي اشتملت عليها كتب الشروح لدى أهل الكتاب ولدى الدولة البيزنطيّة وبعض التراث الرومانيّ وما إلى ذلك.

في المرحلة الأولى التي غادر علم الأصول فيها القرآن والسنّة وكليّاتهما عمد إلى تحويل آيات الكتاب الكريم خاصّة إلى مجرد شواهد تعضد أدلة صنعها المجتهدون لإنتاج الفقه وذلك في الجيل الثالث من أجيال الأمّة التي ينتمي إليها الإمام الشافعيّ فلم تعد آيات الكتاب الكريم منابع منشئة للقواعد الأصوليّة بل صارت شواهد نلاحظ هذا في الاستشهاد لحجّة الإجماع بقوله (تعالى) ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (النساء:115)، والاستدلال بـ ﴿... **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ (الحشر:2) لحجّة القياس، ومنها قواعد الحُسن والقُبح العقليّين أو الشرعيّين وافتعال نزاع بين العقل والشرع أدى إلى جملة من الكوارث الفكريّة، كذلك القول بقاعدة شرع من قبلنا، وتكليف غير المسلمين بفروع الشريعة، وحين ترجم التراث اليونانيّ سارع الأصوليّون المتكلمون إلى تبني المنطق الأرسطيّ بكل مَا فيه، فكانت كارثة كبيرة قادت العقل المسلم إلى اللفظيّة والحرفيّة.

وقد ساعدت أصول الفقه المطورة هذه إلى انقسام الأمّة إلى فريقين: متكلمين وفقهاء، وأهل رأي وأهل حديث، واستمرت عمليّة التشظي إلى أنّ فقدت الأمّة مقومات وحدتها. إنّ من الصعب رصد المشكلات الثقافيّة في العقل المسلم بعد انفصام قيادة الأمّة ﴿.. **وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ..﴾ (**النساء:59**) الحكام والعلماء ودخولهما في حالة صراع حول العلوم

النقليّة كلّها إلى علوم شكليّة لفظيّة لا ترتبط بالواقع ولا تؤثر في المجتمع وحول النظم السياسيّة إلى نظم مختلف في شرعيّتها تحاول أن تكتسب هذه الشرعيّة بوسائل مختلفة دون كبير جدوى. وامتد الفقه امتدادًا سرطانيًّا نتيجة مشكلات الأصول واضطراب قواعده ليتضخم كتاب الطهارة وتضمر الكتب الأخرى ولتبذر كثير من البذور التي تعاني ثقافتنا منها حتى يومنا هذا نتيجة تلك القواعد.

لقد ارتفعت أصوات كثيرة من متخصصين بالعلوم النقليّة ومصلحين ودعاة تجديد وقيادات حركات إسلاميّة لتجديد أصول الفقه واصطدمت كل تلك الدعوات بفكرة أنّ الأصول ثوابت لا ينبغي المساس بها ولا التعرض إليها متجاهلين ومتناسين انفصال الأصول المبكر عن مدار الكتاب الكريم.

يتلخص مشروعنا بدراسة أصول الفقه بدءًا من رسالة الشافعيّ وانتهاءً بما كتبه المتأخّرون مثل الخضري وأبو زهرة وخلّاف والخفيف وغيرهم لمعرفة وتتبع خطوط البداية في التأسيس الأصوليّ التي أدت إلى انحرافه عمّا كان ينبغي أن يكون سداه ولحمته.

نستطيع القول بأنّ بداية الانحراف نجدها في الثقافة الشفويّة التي كانت سائدة في الجزيرة العربيّة والتي أشار إليها ابن خلدون وغيره وبين ارتباطها بتراث الأمم السابقة وببعض عوائد الجاهليّة.

النقطة الثانية في الانحراف هي التي نشأت عن الفصام المبكر بين الحكام والعلماء، فجعل الحكام ينصرفون إلى بناء سياستهم على مبادئ المصالح وسد الذرائع وجعل العلماء يبنون أصولهم على اتجاهات نظريّة كان هدفها الأساس تقييد سلطات الحكام والحيلولة بينهم وبين الاستبداد بشئون الأمّة ثم تحوّل الأمر إلى صراع بين أهل السيف والقلم ثم بين أهل الرأي وأهل الحديث، ثم تتابعت المتوالية.

الأمر الثالث: النزاع الشعوبيّ في بداية تاريخنا جعل غير العرب يتجهون إلى إعلاء السنن وربما تقديمها على الكتاب؛ لأنّها لا تحمل التحدي اللغويّ والإعجاز اللسانيّ وتروى بالمعنى وتسمح لغير العرب أن يزاحموا العرب بالمناكب.

الأمر الرابع: الانحرافات اللغويّة في قواعد النحو والصرف والأسلوب عن نظم القرآن الكريم ولسانه وأساليب تعبيره.

الأمر الخامس: تأثر أصول الفقه بما كان يجري في الساحة الكلاميّة من صراعات طائفيّة وما إليها.

الأمر السادس: إهمال القرآن المجيد واعتباره حمّال أوجه وحصر آيات الأحكام بأعداد معينة لإفساح المجال لابتكار مَا عرف بالأدلة المختلف فيها.

ولذلك فمنذ أن كتب الشافعيّ رسالته ظل العقل المسلم يدور حول القضايا التي أثيرت في تلك الرسالة في نظريّة البيان والاعتماد على السنن والآثار، مثل: خبر الواحد، وقبول الرواية بالمعنى، والتوثيق بالسبر، فظلت الرسالة وموضوعاتها هي الشغل الشاغل لعلماء المسلمين لمدة لا تقل عن قرنيين بعد تأليفها، فقد كُتب خلال قرنين مَا لا يقل عن خمسة آلاف دراسة كما تشير إلى ذلك كتب تاريخ العلماء وما إليها.

ذلك الخلط العجيب تحوّل كلّه إلى ثقافة دخلت العقول والأفكار وبنت مجموعة من المسلّمات التي يصعب أن تقف للبحث العلميّ الدقيق لكنها في سائر الأحوال أخذت شرعيّتها من أصول الفقه، وبذلك فإنّ هذا العلم يحتاج إلى مراجعة تقوم على تفكيك وإعادة تركيب ورصد لكل مسلّماته وقواعده وتحليل لها وتتبع آثارها في الفكر والثقافة السلبيّة منها والإيجابيّة.

ما يشجع على ممارسة هذا النوع من النقد أنّ جميع من لهم إلمام بهذا العلم يدركون تمامًا ضرورة هذه المراجعة لبعض الأسباب التي ذكرناها أو لكلها ولدى الكثيرين منهم استعداد يقوى ويضعف للبعث في بعض تلك الأمور وفي الوقت نفسه سوف تجد محاولات إجراء عمليّات المراجعة لهذا العلم وقواعده ردود فعل غير يسيرة من العناصر الماضويّة والتقليّدية وربما بعض عناصر الإسلام السياسيّ. ومن هنا فإنّنا إذا مَا تم التفاهم على تشكيل فريق بحث مؤهّل وكفء لمراجعة هذا العلم فلا بد من الخطة التفصيليّة الدقيقة الشاملة والوقت الزمنيّ الذي تحتاجه لتنفيذ تلك المراجعة، علمًا بأنّ هذه المراجعة لا بد لها من تناول مؤثرات العلوم المكونة للأصول عليه: كالتفسير والحديث وعلم الكلام وعلوم اللغة والفقه.

أصول الفقه والتجديد:

أصول الفقه عرفت بأنَّها معرفة دلائل الفقه على سبيل الإجمال، وكيفيَّة الاستفادة منها، وحال المستفيد، وأول ما ينبغي لمن يعمل على تجديد هذا العلم وتصحيح آثاره في الخطاب الديني أن يعيد النظر في هذا التعريف، فقولهم: معرفة دلائل الفقه أو العلم بها أمور تعود كلها إلى المكلف، لا إلى العلم ذاته، ولا إلى مسائله، ولا موارده، ولا مصادره، فالعلم والمعرفة كل منهما صفة تقوم بالعالم أو العارف، هذه واحدة. فالذي نريد تعريفه في هذا العلم إنَّما هو العلم ذاته، سواء أكان علمًا أم معرفة، ولا يهمنا فيه عندما نعرفه أن يكون ملكة أو صفة للعالم أو العارف به، فذلك أمر آخر، يتعلق كما قلنا بجهد العالم والعارف وإدراكه، أمَّا عندما نعرف العلم ذاته، فإنَّ اهتمامنا ينصب على حقائق العلم، وكلياته، ومسائله وجزئيَّاته، فتلك هي التي يتألف العلم منها، وتتشكل قواعده بها؛ ولذلك فإنَّ تعريفه يبدأ بتعريف الدليل، والدليل هو ما يستنبط منه ويستدل به على معنى يراد، فمهمتنا أن نعرف حكم الله في مسائل دنيانا وأخرانا، وما حرم علينا وما أوجب وما أحل لنا وأباح، فما يدل على ذلك هو ما يمكن أن نطلق عليه كلمة دليل، فهو أمر يؤخذ بصحيح النظر فيه دلالة على حكم الله في شأن من الشئون أو أمر من الأمور، فنعرف بذلك أنَّ هذا مما حرمه الله، أو أوجبه، أو ندب إليه، أو نهى عنه، فنفعل ونترك بدليل رسمه الله لنا، وجعله علامة على وصف الفعل الذي أمرنا به أو نهينا عنه أيًا كان؛ ولذلك قال المعنيون بصياغة التعاريف بأنَّ: الدليل ما يتوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري. يريدون بذلك أن ما ينتج عن صحيح النظر فيه جملة خبريَّة، فيقال هذا الفعل واجب أو هو حرام، أو مكروه أو مباح، والذي يدل بصحيح النظر فيه على شيء من ذلك شأن حصره الله بذاته العلية، فقال: إن الحكم إلا لله، فحكمه إلى الله، ﴿.. **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾ (**الأنعام:57**)، ﴿**ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ (**الأنعام:62**)، ﴿.. **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (**يوسف:40**)، ﴿.. **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ (**يوسف:67**)، ﴿**وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى**

وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:70)، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:88)، ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر:12)، إذن الحكم لله (جل شأنه) في الأولى كما هو في الآخرة، فهو مالك يوم الدين ومالك الدنيا، ويوم القيامة ينادي في الناس لمن الملك اليوم، فلا يجد (سبحانه) من يجيبه إلا ذاته العلية، فيقول (تبارك وتعالى): ﴿.. **لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر:16)**.

فقد تفضل وتمنن وأنعم وأكرم، حين جعل الحاكميَّة في كتابه الكريم، بقراءة بشريَّة، ليزيل عن الناس الحرج، ويحميهم من المشقة، وهو يعلم (تبارك وتعالى) ضعفهم، وقلة حيلتهم: ﴿.. **وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:28)**؛ لأنَّ الاتصال به (جل شأنه) له حدوده وأبعاده، وما كان لبشر أن يتصل بالله (جل شأنه) ويتوصل إلى أحكامه منه مباشرة إلا إذا مَنَّ الله عليه بالوسيلة، يقول (جل شأنه): ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ (الشورى:51)، ومن هنا أودع الله (جل شأنه) الحاكميَّة في الكتاب، وأمر الناس أن يرجعوا إليه وأن يقرأوه، ويتدبروا آياته، ويستخلصوا أحكامه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران:23–24)**، وقال لنبيه: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:49–50)**، وقال (جل شأنه): ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية:18–19)**، وفي سورة الإسراء قال (تعالى): ﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ**

وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (**الإسراء:73-75**)، إذن فالحاكميَّة لله، لا لأحد سواه، والبشر يقرأون الكتاب ويتعلمون آياته، كما علمهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويستدلون بما علمهم الله (جل شأنه) في كتابه، وبين لهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأفعاله وأقواله، وبذلك تدرك الأحكام، ويتوصل إليها وتعرف الأدلة، وهنا لابد لنا من معرفة أصول فقه الكتاب من داخله، فهناك القراءة وأصولها، وما تقتضيه القراءة الصحيحة من مهارة في معرفة الإحكام، والتفصيل، ومعرفة النظم وأساليب التعبير، وتفاصيل الحرام، والله (تبارك وتعالى) يقول: ﴿.. **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ**﴾ (**الأنعام:119**)، والله (تبارك وتعالى) فصَّل الحرام؛ لأنَّ الحرام هو المساحة الأضيق، وهو الأقل، أمَّا الحلال فهو الأكثر، فالحلال يقول الله (جل شأنه) فيه: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (**البقرة:29**)، لأنَّه لا يُعد ولا يُحصى، أمَّا المحرم فلقلته تم تفصيله، وقد اعتاد الكتاب الكريم أن يأتي بالآيات المحكمات ثم يأتي بتفاصيلها: ﴿.. **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ (**هود:1**)، فالأدلة أو الدليل لابد أن يحكم أولًا، ويبنى بأقوى ما يكون عليه البناء، ثم يأتي تفصيله بعد ذلك، بملاحظة جوانب عديدة، منها جانب التكليف، والمكلف، والإشارة إلى كل ما له علاقة بالتكييف، تكييف الوقائع، وهنا يأتي بعد الأصل الأول الذي هو القراءة الأصل الثاني الذي هو الإحكام والتفصيل، وبعد معرفة الإحكام والتفصيل والمهارة في هذه المعرفة لابد من معرفة الوحدة البنائيَّة للقرآن الكريم، حقيقتها، وأهدافها، وآثارها، في بيان الأدلة والأحكام، ومعرفة الإحكام والتفصيل. فإذا تم ذلك انتقلنا إلى الإحكام والتشابه، وقضايا النسخ، والعوارض التي أضيفت إلى الدليل القرآني، لدراستها، إيجابًا وسلبًا، ثم بعد ذلك محاولة النظر في قضايا الجمع بين القراءتين، حقيقته أهدافه كيفيَّته، كيفيَّة تعلمه والتدرب عليه، وتدريب الآخرين على ممارسته، والجمع بين القراءتين يشتمل على قضيتين أساسيتين، الجمع بين قراءتي آيات الكتاب الكريم، والواقع المعاش. ثم الجمع بين آيات الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة المطهرة،

والواقع في عصر النبوة والواقع الذي نعيشه، وهنا سوف نكتشف أنَّ أدلة الفقه تنحصر بدليل واحد، هو القرآن المجيد، والسنَّة النبويَّة دليل في عمليَّات منهج فهم القرآن الكريم وتعلمه، وتلاوته حق التلاوة، والمهارة بأساليبه، واستنباط الأحكام منه، والنظر إلى السُنَّة على أنَّها أعلى مراحل الفقه، وأعلى درجات الاستنباط، وأهم المنابع لمعرفة دلالات القرآن المجيد، والوصول إلى أحكامه، ثم النظر في الكليَّات القرآنيَّة وعمومات القرآن، والسياقات القرآنيَّة، وكيف يحقق القرآن المجيد أهدافه، ثم المقاصد القرآنيَّة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى كيفيَّة رد الناس إلى القرآن الكريم، وإعادة بناء علومه، وتوصيل الناس به، والبناء على ما بدأناه، والنسج على منواله، والله أعلم.